جمعية جامعة المحبة
المركز الثقافي
Culture Center

جريدة : الدستور
التاريخ : 1يناير 2010
الصفحة : 1
العدد : 867

الكاتب : ابراهيم عيسى
السنة :

من أول السطر

مريم التجلى الأخير

إبراهيم عيسى

أعادنى تجلى السيدة العذراء فى كنيسة الوراق ثم فى عدة كنائس فى أرجاء مصر خلال الأيام الماضية إلى الماضى!

نعم، فسبعة عشر عاماً هى ماض بكل تأكيد، حيث كنا شباباً نحلم بتغيير العالم فانتهى بعضنا من حلم تغيير العالم إلى حلم تغيير العربية، وحط رحال بعضنا الآخر من حلم تغيير العالم إلى حلم تغيير أو غسيل دمه من فيروس «سى»، ولا يزال بعضنا يعتقد أن تغيير العالم ممكن جداً بشرط تغيير مادة فى الدستور، ولكن الغالب فينا والأغلب بيننا هو من اكتفى بتغيير ملابسه الداخلية وفضها سيرة تغيير العالم طالباً منا: لما تغيروا العالم ابقوا ادونى رنة!

عشنا وشفنا وشبنا!

فلما تجلت ستنا مريم عادت بقوة إلى وجدانى وتفكيرى روايتى (مريم التجلى الأخير) التى صدرت عام ١٩٩٣عن روايات دار الهلال، وتدور أحداثها فى واقع الصحافة المصرية حيث أبطالها وناسها وشخوصها منحوتون من هذا المجتمع الذى التحقت به صغيراً جداً وأنا فى التاسعة عشرة من عمرى حين دخلت مجلة «روزاليوسف» وعملت بها منذ عامى الأول فى كلية الإعلام، وكانت تلك الرواية حصيلة السنوات الثمانى الأولى فى علاقتى بالمهنة، وهى السنوات المسئولة عن إنزالك من عالم المثالية والأحلام إلى عالم الواقع والكوابيس، وكان القلب غضاً والعقل بكراً والروح شفافة والوجدان زجاجياً ينكسر من غلظة نسيم ويتهشم بريح الحقيقة، وعدت لقراءة الرواية ورأيت كم كنت وحدى وكم كنت حزيناً وكم كنت أبله متصوراً أنه يمكن للحياة أن تكون على غير ما تعودت أن تكون، الرواية عن انكشاف الزيف والتزييف فى الحياة الصحفية والعاطفية وتهاوى أحلام الحب وفشل تغيير مصر للأعذب والأجمل والأصدق وكل هذا محوره ستنا مريم!

كيف؟!

أبداً.. فى النصف الثانى من الرواية، حيث ينكسر حب بطل الرواية الصحفى الشاب الذى وجد حبيبته ترميه من قلبها فى ميدان التحرير فيسعى ليغطس فى العمل ويقوم بتغطية وقائع ظهور وتجلى السيدة مريم فى كنيسة قديمة وأثرية فى ضاحية من ضواحى القاهرة، فإذا به يفض سراً مما لا يقدر على احتماله، وعندما قرأت الرواية مؤخراً حيث أراجعها لطبعة جديدة تنشر خلال أيام، اكتشفت هول أن شيئاً لم يتغير، لعل العالم كله الذى تحدثت عنه فى الرواية لم يتغير رغم كبر سن الكثيرين منهم وتراخى وجود آخرين وتحول حبيبة الراوية من فتاة أحلام إلى فتيات أحلام، وانزواء نجوم وانتفاخ نجومية كومبارس، إلا أننى أكاد أجد نفسى الوحيد الذى لم يتغير سواء فى بلاهته أو نباهته!!

ومن الرواية هذا المقطع :

تمهلت دقائق تلوت فيها آيات من القرآن الكريم ودعاء للنبى أحبه.....وبدأت بحثى الليلى عن الباب الخلفى.. فلما فشلت قررت، وأنا أرى على مقربة من السور أنوار الكنيسة وأسمع هزات الأشجار والنخيل.....وضعت قدمى فى أول بروز وجدته صالحاً.. لكننى تعثرت وكدت أسقط فتماسكت ورفعت يدى أحاول التشبث بحافة السور.. فى المرة الثالثة تمكنت من ذلك.. شددت قبضتى ونهضت بجسمى حتى كنت فوق الحافة تماماً، مجروحاً ومخدوشاً وفى عرق يكفى نصف أجساد البشر.

قفزت فى رهبة كاملة إلى ساحة الكنيسة.

دخلت فى ظلام رهيب، فكته بعض شعلات من نور متسللة من زوايا المدخل وممرات السلم.....

المفترض أن الشرفة فى الطابق الثالث، تحسست إفريز السلم.. وبدأت أعد درجاته وأرقام الطوابق.. المبنى مهجور بالفعل ومظلم وغامض.. كما أن ممراته الطويلة وأبواب حجراته المغلقة وتماثيله وصوره المكسورة ومواء القطط البعيد، كل ذلك يدفعك إلى التراجع..

لكننى تجاوزت حد التفكير.. وسرت فى اللا شىء.. ذهنى صار صافياً.. رائقاً ولا أفكر فى أى شىء بالمرة.. كنت أخرج من روحى لأشاهد روحى، أنفصل عن ذاتى لأشهد على جسدى..... وصلت دون ارتباك ولا تردد إلى الطابق الثالث.. واقتربت من أبوابه ... أضغط على مقابضها حتى انفتح باب كبير فى رقة.. دخلت برأسى، ثم جسدى، إلى الغرفة ... كانت السيدة مريم تجلس!